

الصعود والانهار في قصة الاتحاد السوفييتي

أصبح الاتحاد السوفييتي مجرد قصة تروى وكان قبل عشر سنوات فقط أحد القوتين العظميين المتنافستين في السيطرة على الكرة الأرضية وشعوبها، بل والسيطرة على الفضاء الخارجي أيضاً.

كانت ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧م هي الشرارة الأولى التي انطلقت إيذاناً بمولد هذا العملاق، إنها الثورة البلشفية الشيوعية التي تحولت إلى زلزال بدأ من مركزه في روسيا ثم لم يلبث أن انساب في أرجاء الأرض غرباً وجنوباً ليغطي مساحات شاسعة عبر آسيا حتى اليابان.

وتشكلت بذلك أكبر إمبراطورية برية على كوكب الأرض في العصور الحديثة، استوعبت سدس اليابسة وبلغ تعداد سكانها ٢٨٠ مليون نسمة، تضم ما يزيد على مائة أمة وقومية. وعشرات اللغات واللهجات. بهذه الصورة اكتمل للنظام السوفييتي الشيوعي السيطرة المطلقة على كامل أراضي الإمبراطورية الروسية القيصرية مضافاً إليها مناطق جديدة في آسيا وأوربا ليطل على بحر البلطيق في أقصى شمال القارة الأوروبية. ولكنه استحدث لهيمنته على هذه البقاع الشاسعة عنصرين جديدين هما الأيديولوجية أو العقيدة الشيوعية والتكنولوجيا متمثلة في الكهرباء، فإذا كانت الأيديولوجية قد غيرت المناخ الفكري لشعوب الاتحاد السوفييتي فإن الكهرباء قد غيرت المناخ البيئي الذي كان بارداً جامداً مظلماً فأدخلت فيه الدفء والضوء والمرونة علاوة على أنها كانت الطاقة المحركة للآلة الصناعية.

وقد امتزج عنصرا الأيديولوجية والتكنولوجيا منذ اللحظات الأولى لانطلاق الثورة في عقول مؤسسي الاتحاد السوفييتي حتى أنه ينسب إلى لينين القول بأن: "الشيوعية هي كهرة الاتحاد السوفييتي".

بهذا الامتداد الأيديولوجي والأرضي الهائلين تحقق للاتحاد السوفييتي المقومات الأساسية للقوة في العصر الحديث: مساحة ضخمة متصلة من الأرض، وموارد بشرية هائلة، ومصادر للثروة الطبيعية متنوعة وهائلة. من القيصرية إلى المد الشيوعي:

كانت الإمبراطورية القيصرية استعماراً سياسياً واقتصادياً من النوع التقليدي تسلط بمقتضاه العنصر السلافي الأوروبي المسيحي الأبيض على سائر الشعوب والقوميات الآسيوية التي تختلف عنه تماماً في أصولها وثقافتها، تفرقت في عناصرها الإثنية بين مغولية وتركية وتترية وطورانية ولكن جمعتها عقيدة دينية هي الإسلام.

كان التوسع الروسي القيصري في آسيا أشبه شئ بالاستعمار الأنجلوسكسوني لأمريكا الهنود الحمر، وفي هذا المعنى أعلن لينين نفسه أن الإمبراطورية القيصرية لم تكن إلا "سجن أمم ذي أبعاد رهيبية"، فقد حكمت

هذه الإمبراطورية شعوباً ذات تاريخ حضاري طويل ومجتمعات مستقرة ذات كثافة سكانية عالية، ولكي تحكم قبضتها على هذه الشعوب والمجتمعات واستنزاف طاقاتها ومواردها كان عليها أن تستخدم أقصى أنواع العنف للقضاء على الخانات (الإمارات) الإسلامية، وقمع الثقافات المحلية والمشاعر القومية بواسطة الإرهاب، وتاريخ قياصرة آل رومانوف في هذا المجال دموي إلى أبعد الحدود.

أما الإمبراطورية السوفييتية فقد جاء الروس فيها بأيدولوجية شمولية معادية للدين وللنزعات القومية وكانت هذه هي الفلسفة أو العقيدة الدينية الجديدة للشيوعية التي يراد نشرها أو فرضها على البشرية بثورة عالمية لتحل محل الأديان التقليدية كلها، ومحور هذه الأيدولوجية هو دكتاتورية البروليتاريا (أو الطبقة العمالية) التي من حقها أن تفرض سيطرتها بالعنف على سائر الطبقات الأخرى والعمل على تصفيتهما تماماً من الوجود.

بعد الحرب العالمية الثانية امتد نفوذ الاتحاد السوفييتي ليشمل منافذ البلطيق حيث تحولت دويلات إلي سوفييتات بالإضافة إلى مساحة كبيرة من شرق بولندا وشرط من رومانيا. وامتدت الهيمنة السوفييتية لتشمل جميع الدول التي تحولت إلى النظام الشيوعي بواسطة الأحزاب الشيوعية المحلية مدعومة بالقوات المسلحة السوفييتية، وهكذا أصبحت أوروبا الشرقية كلها مشتملة على ألمانيا الشرقية والمجر وتشيكوسلوفاكيا وجميع دول البلقان باستثناء اليونان - أصبحت كل هذه الدول تدور في فلك الاتحاد السوفييتي اقتصادياً وعسكرياً ومصيرياً، فقد ضمها سياسياً إلى حلف وارسو واقتصادياً إلى منظمة الكوميكون.

الصراع بين الكتلتين الشرقية والغربية:

انشطرت العالم إلى كتلتين متنازعتين: الكتلة الشرقية الشيوعية بقيادة الاتحاد السوفييتي وتوابعه، والكتلة الغربية الرأسمالية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وتشمل دول أوروبا الغربية وكندا مجتمعة في حلف آخر مضاد لحلف وارسو هو حلف شمال الأطلسي الذي يطلق عليه اختصاراً "الناتو".

خلال الحرب العالمية الثانية تمكنت الولايات المتحدة الأمريكية من صنع القنبلة الذرية بواسطة علماء وتكنولوجيا من ألمانيا وأسقطت قنبلتين على مدينتي يابانيتين هما هيروشيما ونجازاكي فدمرتهما وقتلت مئات الألوف من سكانهما، وخرجت من الحرب أقوى قوة نووية في العالم، ولكن لم يلبث الاتحاد السوفييتي إلا قليلاً ليطور قوته النووية الخاصة به مستعيناً هو الآخر بالتكنولوجيا والخبرة الألمانية أيضاً.

وكان امتلاك الصواريخ عابرة القارات في كل من الدولتين العظميين مصدر رعب هائل لكليهما، وأصبح معنى الحرب بينهما الدمار الشامل المطلق فقد كان كل منهما يملك مخزوناً نووياً يكفي لتدمير الآخر لا مرة واحدة بل عدة

مرات، بل يكفي لتدمير الكرة الأرضية كلها ويجعلها بإشعاعاته القاتلة غير صالحة للحياة بعد ذلك.

ولأن الحرب النووية كان يمكن أن تنطلق في أي لحظة نتيجة للصراع الدائب على مناطق النفوذ نشأت فكرة عبقرية في عقول مجموعة من قادة العالم الثالث تبلورت في مبدأ الحياد الإيجابي وعدم الانحياز تقوم على أساسه كتلة من الدول المحايدة لتقف حائلاً دون الاحتكاك المباشر بين القوتين العظميين. الرعب النووي:

ولكن سرعان ما تبين للقطين الكبيرين أن الحرب النووية بينهما أمر مستحيل لأن نتيجتها الحتمية هي الدمار الشامل لكليهما، وأن الصراع بينهما على مناطق النفوذ يمكن أن يستمر وأن تنشب حروب محلية هنا وهناك تستخدم فيها الأسلحة التقليدية المتقدمة دون اللجوء إلى الأسلحة النووية أو الصدام المباشر على أراضيها بل على أراضي بعيدة عن حدودهما. ومن ثم انطلقت الحروب الإقليمية لتمزيق كتلة دول عدم الانحياز في مناطق كثيرة من أبرزها الحرب الكورية والفيتنامية، والحرب الإسرائيلية العربية، وتعددت الانقلابات العسكرية لزعة الاستقرار في دول العالم الثالث، كان من أبرزها انقلاب سوهارتو في إندونيسيا، وكان لإفريقيا وأمريكا اللاتينية أكبر نصيب من هذه الانقلابات التي دبرت لها ودعمتها القوى الإمبريالية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية.

كان السباق بين العملاقين الكبيرين في مجال التسليح ومجال غزو الفضاء باهظ التكاليف استطاعت الولايات المتحدة أن تصمد فيه لفترة أطول، ربما لعدة عوامل من أهمها: أنها كانت تهيمن على أكبر مصادر الطاقة في العالم وعلى رأسها بترول البلاد العربية، وبالإضافة إلى ثرواتها الخاصة كانت تنهب ثروات دول أمريكا اللاتينية علاوة على امتلاكها لقاعدة إنتاج صناعي ضخمة تدعمها وفرة من رؤوس الأموال والتكنولوجيا المتقدمة والإدارة المتميزة، ويقوم بالإنتاج طبقة عمالية على درجة عالية من الوعي والرفاهية النسبية، ويحيطها مناخ ديمقراطي لا يتوفر في الاتحاد السوفييتي ولا حتى يستطيع أن يحلم به.

لم يكن الاتحاد السوفييتي بمستطيع أن يواصل تحدياته في سباق التسليح النووي وغزو الفضاء وهو ينطوي على أيديولوجية مدمرة أفرغت الإنسان من محتواه الروحي والوجداني ولم يستطع النظام القائم عليها أن يقدم للإنسان كفايته المادية ناهيك عن الرخاء الذي كان يحلم به في ظل النظام الشيوعي.

كان الاتحاد السوفييتي أكبر دولة بوليسية في العالم يعمل شطر كبير من سكانه في التجسس على بقية السكان الذين كان من المفروض أن ينهضوا بعبء الإنتاج، وما كان في مقدورهم أن يحققوا معجزات في عملية الإنتاج

وقد خبت روح الثورة الأولى في أفندتهم وانكشف الغطاء عن الآمال المحببة وفاحت رائحة الفساد السياسي وبدأت الحياة كئيبة متردية تحت وطأة أجهزة المخابرات وإرهاب ألد "ك. جي. بي".
جورباتشوف والبيروسترويك:

فما الذي حدث على وجه التحديد في الإتحاد السوفييتي ابتداءً من السبعينات؟
لندع العوامل الروحية والوجدانية التي نصب معيها في ضمير الإنسان السوفييتي جانبا لننظر بشيء من التأني في تشخيص أبرز مفكري الإتحاد السوفييتي وأبرز قادته في آخر محطة وصل إليها قطار الإتحاد السوفييتي، وأعني به الرئيس السابق ميخائيل جورباتشوف، فلنستعرض بعض ما كتب في مؤلفه الشهير "البيروسترويك" أو "إعادة البناء"، مشيراً إليه باعتباره ثورة التغيير الجديدة التي يجب أن تحدث في الإتحاد السوفييتي لمعالجة أمراضه المستحكمة، وهو تغيير يرى جورباتشوف ضرورة أن يلحق بالأفكار والمواقف والممارسات جميعاً مما سترتب عليه انقلاب في السياسة الداخلية والخارجية معاً.

وإذا كان جورباتشوف في كتابه يحاول أن يضع أصابعه على مكنم الداء الذي أصاب الإتحاد السوفييتي إلا أنه لم يخرج في نهاية الأمر بمنهجه الفكري عن الإطار الماركسي الذي يرجع كل شيء إلى الاقتصاد وإلى التطور المادي.

ومهما يكن الأمر ففي تشخيص جورباتشوف نقاط على جانب كبير من الأهمية وفيه حقائق ينبغي الإمعان في تأملها بما تستحقه من عناية إذا أردنا أن نفهم لماذا انهار الإتحاد السوفييتي؟

في حديث جورباتشوف يمتزج الحزن على تردي الأوضاع في بلاده بالفخر بمنجزات حضارية تحققت فيها، يقول: "خلال العقود السبعة الماضية .. اجتازت بلادنا تاريخاً يعادل قرونًا، وقامت واحدة من الدول في العالم لتحل محل الإمبراطورية الروسية المتخلفة شبه الإقطاعية وشبه المستعمرة. إن لدينا قوة إنتاج ضخمة وقدرات فكرية جبارة وثقافة رفيعة، ومجتمعاً فريداً يضم ما يزيد على مائة أمة أو قومية، ورعاية اجتماعية راسخة لـ ٢٨٠ مليوناً من البشر .. وهذه هي منجزاتنا التي لا تمارى".

وأستطيع من جانبي أن أضيف إلى هذه المنجزات الحضارية القضاء على الأمية قضاء مبرماً خلال فترة زمنية قصيرة، بينما لا تزال أمم تفخر بأن لها حضارة تمتد في التاريخ سبعة آلاف سنة تزرح في عار الأمية الضاربة.
عوامل الفساد والتحلل:

والسؤال الآن هو ما الذي حدث إذن في الإتحاد السوفييتي لكي يجعل من البيروسترويك مسألة ضرورية؟

يقول جورباتشوف: "في مرحلة معينة - وقد أصبح واضحاً على وجه الخصوص في النصف الأخير من السبعينات - حدث شئ لا تفسير له لأول وهلة. لقد بدأت البلاد تفقد اندفاعها، وتكرر الإخفاق الاقتصادي بدرجة أكبر، وبدأت الصعوبات تتراكم وتتدهور، وتتضاعف المشاكل التي لا تجد حلاً، وبدأت تظهر في مجتمعاتنا عناصر ما نسميه بالركود.. وتشكل نوع من (التروس الكابحة) التي تعوق تنمية المجتمع والاقتصادية. حدث هذا كله بينما الثورة العلمية والتكنولوجية تتيح آفاقاً جديدة للتقدم الاقتصادي والاجتماعي.

ثم يمضي جورباتشوف يشير لشيء من التفصيل إلى ما أسفرت عنه التحليلات في هذا المجال فيحصرها في العوامل التالية:

١- تدهور معدلات نمو الدخل القومي لأقل من النصف خلال السنوات الخمسة عشر الأخيرة، وبحلول الثمانينات انخفضت هذه المعدلات إلى مستوى الركود الاقتصادي.

٢- بدأ الاتحاد السوفييتي يفقد موقعه الاقتصادي بين الدول المتقدمة وأخذت الفجوة تتسع بينه وبينها بالنسبة لكفاءة الإنتاج، فتدنت جودة المنتجات كما تراجع التطور العلمي والتكنولوجي، وبالذات إنتاج التكنولوجيا المتقدمة واستخدامها.

٣- أصبح معيار الأفضلية في المؤسسات هو إنفاق أكبر قدر من العمل والمواد والأموال، وجعل المديرون هذا مبرراً لزيادة أسعار السلع بصرف النظر عن الجودة. وكانت الحصييلة إهدار للموارد الطبيعية وقصور في الجودة مع زيادة في الأسعار.

٤- في محاولة خرقاء لإصلاح هذه الأوضاع، لجأت الإدارة إلى منح مكافآت أكبر، وتنوعت الحوافز بدون استحقاق، مما أدى إلى ظهور التقارير المنمقة والإحصاءات المبالغ فيها لتبرير المكافآت والحوافز، وبذلك زادت المواقف الطفيلية وتراجعت مكانة الإتيقان في العمل وتجويده.

٥- اختلال التوازن بين حجم العمل وحجم الاستهلاك الذي لم يؤد فقط إلى إعاقة نمو إنتاجية العمل بل إلى تشويه مبدأ العدالة الاجتماعية.

٦- اللجوء إلى بيع مزيد من البترول وغيره من موارد الطاقة والمواد الخام في السوق العالمية لم يؤد إلى تحسين الأوضاع بل أدى إلى تفاقمها، حيث استخدمت الدخول لحل المشاكل الآنية الجارية بدلاً من استخدامها في تحديث الاقتصاد بهدف اللحاق بالتقدم التكنولوجي.

٧- ظهور ما يسمى بـ "مبدأ المتبقي" بمعنى أن تتلقى البرامج الاجتماعية والثقافية فقط ما يتبقى من ميزانيات الإنتاج، ومن ثم بدأ المجال الاجتماعي يتخلف، وتقع المشكلات الاجتماعية الملحة على آذان صماء مما عكس أثره السلبي على نوعية العمل.

٨- لأن النظام الشيوعي يأخذ بمبدأ العمالة الكاملة وتوفير الضمانات الاجتماعية الأساسية فقد أضاف هذا أعباء هائلة على عاتق الاقتصاد، ترتب

عليه قصور في تلبية الاحتياجات المتنامية في الإسكان وفي نوعية وكمية المواد الغذائية، وقصور في المواصلات والنقل والخدمات الصحية والتعليمية. ٩- بسبب الاستخدام التبيدي للموارد وتخلف الإنتاج أصبح الإتحاد السوفييتي يواجه نقصاً في المواد الخام والوقود والطاقة والصلب وكان قبل هذا أكبر منتج لهذه المواد، كما كان من أكبر منتجي الحبوب الغذائية ولكنه أصبح مضطراً لشراء ملايين الأطنان من البلاد الأخرى.

١٠- التدهور التدريجي في القيم الأيديولوجية والمعنوية للشعب، وتفشي المدح للكبار، وروح الخنوع في الجماهير، وتجاهل القادة احتياجات الناس وآرائهم، واستبعاد التفكير المبدع في العلوم الاجتماعية، وغطت على السطح أحكام وتقويمات عفوية وسطحية اعتبرت حقائق لا تقبل الجدل.

١١- أثرت اتجاهات سلبية مماثلة على الثقافة والفنون والصحافة، وعلى التعليم والطب، فتدنى المستوى في هذه المجالات إلى ما دون المتوسط، وسادت الشكلية مع زيادة في المديح الصاخب الذي لا مبرر له.

١٢- كان الإصرار على تقديم الواقع في صورة خالية من المشاكل له آثار عكسية فقد حدث انفصال بين القول والفعل، أدى إلى تقوية الاتجاهات السلبية في المجتمع وعدم تصديق الشعارات المعلنة وضعف المصادقية، وأصبح كل ما يعلن من فوق المنابر وينشر في الصحف والكتب الدراسية مثار شك وتساؤل عند الجماهير.

١٣- سرى الفساد في الأخلاقيات العامة وضعف الشعور بالتضامن الذي كان سائداً في فترة الثورة البطولية، وفي الخطط الخمسية وإعادة التعمير بعد الحرب.

وصاحب ذلك زيادة مضطردة في حالات إدمان الخمر والمخدرات والجرائم. ١٤- تغلغت القوالب الجامدة في الثقافة الجماهيرية مما أدى إلى السوقية والأذواق الهابطة، وزاد الجذب الأيديولوجي.

الحزب الشيوعي:

ينتقل جورباتشوف إلى الحديث عما لحق بالحزب الشيوعي والإدارات الحكومية من فساد وانحلال على كل المستويات، وما ترتب على هذا من فساد اجتماعي، فيقول: "حل العبث السياسي والتوسع في منح الجوائز والألقاب والمكافآت محل الاهتمام الحقيقي بجماهير الشعب وظروف معيشتهم وعمله.. ونشأ مناخ سادت فيه عبارة نمطية (كل شيء على ما يرام)، وفترت روح الانضباط والشعور بالمسئولية يوم بعد يوم، وبذلت المحاولات لتغطية هذا الفساد بحملات إعلامية صاخبة والحديث عن مشروعات طنانة واحتفالات بذكرى مناسبات عديدة على شتى المستويات المركزية والمحلية.

وساد أسلوب تغطية البعض على البعض الآخر، وأصبح العديد من أعضاء الحزب في المواقع القيادية فوق الرقابة والنقد، مما أدى إلى الفشل في العمل وإلى تفشي ممارسات خاطئة بل خطيرة.

وظهر في المستويات الإدارية عدم احترام للقانون، وساد الكلام المضلل والرشوة وانتشر الخنوع والتمجيد للكبار.

وفي انعكاس هذه الأوضاع على الحياة الاجتماعية للناس يقول جورباتشوف: "كانت الجماهير العاملة ساخطة بحق على سلوك القادة الذين يفترض فيهم أنهم موضع ثقة وأهل للمسئولية ولكنهم يسيئون استخدام السلطة ويقمعون النقد، ولا يهتمون إلا بجمع الثروات بل تحول بعضهم إلى شركاء في أعمال إجرامية.

وبدأ العمال والمثقفون وعدد من المسؤولين في الحزب على كافة المستويات المركزية والمحلية يفكرون بقلق في الأوضاع المتردية، وتزايد الإدراك بأن الأمور لا يمكن أن تسير على ما هي عليه لوقت طويل، وتفجر السخط والحيرة لأن القيم العظيمة التي ولدتها الثورة والنضال البطولي من أجل الاشتراكية قد داستها الأقدام، ورأى الشرفاء بمرارة أن الجماهير تفقد اهتمامها بالشئون العامة وأن العمل فقد مكانته المحترمة وأن الناس – وبخاصة الشباب، لم يعد لهم هم إلا الجري وراء المكاسب العاجلة بأي ثمن.

وظهرت فئات من المسؤولين في كل موقع لا يلتزمون بأداء واجباتهم ويتكاسلون في العمل ويتهربون من المسئولية ويسرفون في تعاطي الكحول والمخدرات. واستطاع فريق منهم تكييف القوانين والسياسات القائمة لخدمة مصالحهم الشخصية الأنانية، فلا يقدمون للمجتمع سوى أقل القليل بينما يحصلون لأنفسهم على أقصى ما يمكن من المنفعة، ويعيشون على دخول كبيرة لم يبذلوا في سبيل كسبها أي عمل إيجابي. أصل الداء وجذور العلة:

استطاع جورباتشوف بتحليلاته الواسعة أن يشخص لنا الظواهر المرضية في الاتحاد السوفييتي، وأن يضع يده على أنواع من الأمراض وأعراضها التي تفتشت في المؤسسات وبين القيادات وعلى جميع المستويات، واستطاع في تحليلاته أن يبرز لنا كثيراً من العلل الروحية التي أصابت القيم الأخلاقية في المجتمع، إلا أنه بحكم ثقافته وتأثره والتزامه بمنهج التفكير الماركسي (المادي) لم يستطع أن يتجاوز الأعراض والظواهر لينفذ إلى أصل الداء وممكن العلة.

ومن ثم لم يستطع جورباتشوف أن يتبين أن أصل العلة وجورها يكمنان في أعماق الأيديولوجية الماركسية والنظام الشيوعي نفسه، فالفكر والنظام ينزعان من الإنسان خصوصيته الإنسانية، وينكران أصله الروحي وفطرته الأولى التي فطره الله عليها يوم خلق آدم.

النظام الشيوعي مثل أي نظام علماني آخر يفصل الدين عن الحياة العامة للناس فالدين والشريعة مكانهما دور العبادة فقط، أما حياة الناس في المجتمع فتخضع للقوانين الوضعية أو قرارات الدكتاتور العظيم والزعيم الأوحده. ولكن الشيوعية لا تقف عند هذا الحد لأنها عقيدة معادية للدين، وتعتبر الدين أفيون

الشعوب ومظهر تخلف وعانقاً عن التقدم والإنتاج، لذلك أعلنت عليه الحرب بضراوة ورفعت راية الإلحاد وجعلت الله عدوها الأكبر. ربما لأول مرة في تاريخ البشرية تجعل الدولة الإلحاد والكفر بالله وبالآديان جميعاً محور نظامها التعليمي والثقافي وتخصص لهذا الغرض موارد مالية وبشرية هائلة وتفتح معاهد متخصصة لتخريج دعاة لنشر الإلحاد وتمكينه بين الجماهير، وتبدأ نظامها التعليمي هذا من أول لحظة في ميلاد الطفل حتى يتوارى في القبور.

ولأن الشيوعية ترفض أي ولاء آخر لغير عقيدتها الخاصة قضت على قداسة الروابط الأسرية وأطلقت الحرية الجنسية بين الذكور والإناث ونزعت من الأم أطفالها لتربيتهم بطريقتها الخاصة، فقتلت بذلك عواطف الأمومة والأبوة والبنوة، وجعلت الرجال والنساء جميعاً تروساً في عجلة الإنتاج. وهكذا قضت الشيوعية على الأسرة والأخلاق وكل المقدسات التي يحرص الدين على بثها ويقوم على صيانتها ورعايتها في حياة الإنسان الفرد والمجتمع.

هذا الانحراف الخطير بالفطرة الإنسانية وإغلاق الطريق تماماً أمام الأشواق الروحية نحو المقدس، وانتزاع الأمل في حياة خالدة أخرى بعد الموت تتحقق فيها العدالة الإلهية ويحاسب الناس فيها على ما فعلوه في الدنيا خيراً أو شراً، والإنكار المطلق لحرية الإنسان في اختيار عقيدته الدينية والتعبير عن رأيه والدفاع عن موقفه.

كان هذا هو السر الذي غاب عن عقل جورباتشوف وهو يشخص أمراض المجتمع في الاتحاد السوفييتي ويصف له العلاج، حيث يدعو إلى العودة إلى مبادئ لينين الاشتراكية، وهو لا يدري أن الدواء الذي يوصي به هو أصل الداء ومصدره.

لله فيما الذي دفع جورباتشوف إلى الاعتقاد بأن علاج الخلل في الاتحاد السوفييتي يكمن في العودة إلى مبادئ لينين الأولى؟ كان عهد لينين عهد ثورة شعبية كبرى، ثورة على مظالم الحكم القيصري الفاسد وعلى الإقطاع الجائر والاستبداد السياسي والفساد الكنسي وعلى أنانية الطبقة العليا التي احتكرت السلطة والثروة وعاملت الجماهير معاملة العبيد.

للثورات الكبرى خصائص مشتركة:

ومن خصائص الثورات الكبرى أنها تطلق القوى الإنسانية الكامنة في الأفراد فإذا بهم يخلعون أنانيتهم وينطلقون على أجنحة المحبة والإخاء والتضحية، وفي هذا المناخ الثوري الدافئ المحموم تسقط حسابات الزمن بإيقاعاته الرتيبة، وتسقط العوائق المادية والنفسية، ويحقق الأفراد والجماعات طفرات في العمل والإنجاز كانت تعتبر في الماضي من المستحيلات.

يفعل الناس هذا في المناخ الثوري يحدوهم الأمل العارم في مستقبل أفضل يحققون فيه لأنفسهم وللأجيال من بعدهم حياة يسودها العدل والرخاء والسعادة، ومن ثم تهون التضحيات الفردية وتشيع الأعمال البطولية. يستوي في هذا الوصف جميع الثورات التاريخية الكبرى سواء كانت ثورات دينية أو غير دينية، كلها تشترك في هدف واحد هو تحرير الإنسان من العبودية وتحقيق العدالة ولها وسائل مشتركة هي التضحية والبطولة، يسمي الإسلام هذا بالجهاد في سبيل الله وتسميه الشيوعية النضال من أجل الاشتراكية.

تتشابه الثورات كثيراً في مراحلها الأولى بصرف النظر عما يحدث بعد ذلك في المراحل التالية بعد انتصار الثورة، كانت شعارات الثورة الفرنسية مثلاً هي الحرية والإخاء والمساواة وكانت العدالة الاجتماعية من أبرز شعارات الثورة الشيوعية. ولو تأملنا قليلاً في مصدر هذه الشعارات لتبين لنا أن مصدرها الأصلي هو الدين، فليس في الفكر المادي كله سواء كان شيوعياً أو علمانياً أي سند أو مبرر لهذه المبادئ العظيمة لأنها مبادئ إلهية لا يمكن فهمها أو استنباطها إلا من العقيدة الدينية.

وإذن فقد كان جورباتشوف - وهو يدعو إلى العودة إلى مبادئ لينين الأصلية كان ينظر إلى مرحلة الثورة العارمة وينفعل بها، ولكنه لم يستطع أن يرى الجانب الإلهي فيها، وإنما استنتج أن مبادئ لينين كانت هي السبب وراء هذه الروح الثورية التي حققت المعجزات والطفرة وأطلقت القوى الإنسانية المبدعة فأقامت التقدم الصناعي والزراعي الهائل في بضعة عقود، وأخرجت روسيا من التخلف المهين وجعلت الإتحاد السوفييتي في مركز الصدارة العالمية ليكون أحد القطبين منافساً للند مع الولايات المتحدة الأمريكية. المؤسسات الثورية التي قتلت روح الثورة:

ولكن المؤسسات التي صنعتها الثورة البلشفية (الشيوعية) لتحافظ على مكاسبها ومبادئها ومنجزاتها وتنفذ بها برامجها السياسية والاقتصادية والاجتماعية هي نفسها المؤسسات التي أثمرت قيادات دكتاتورية ديناصورية مروعة مثل ستالين الذي قتل في عهده أكثر من خمسة عشر مليون مواطن من أبناء الإتحاد السوفييتي، وهي نفسها المؤسسات التي قضت على روح الثورة وانتزعت من الجماهير روح المبادرة وزرعت الخوف والجبن والنفاق والسلبية في نفوسهم وهي التي أطفأت شعلة الإبداع عند فئات المفكرين والمتقنين والأدباء، فاندثر المبدعون العظام الذين ملئوا الدنيا أدباً راقياً وفناً رفيعاً من أمثال تولستوى وديستوفسكي وتشيكوف وبوشكين وتشايكوفسكي واختفت أعمالهم الأدبية والفنية فقد أصبح تداولها محرماً في الإتحاد السوفييتي، وبدلاً من ذلك ظهرت طبقة من الإمعات والنكرات والمنافقين يكتبون قصصاً تافهة بأمر الدكتاتور ستالين وتحت اسم الواقعية الاشتراكية، هو الذي روج لها وهو الذي حدد موضوعات الكتابة فحصرها في تمجيد

المصانع الكبرى وبطولات الإنتاج، وفي هذا السياق جرى تيار تأليه الطاغية والتسبيح بحمده.

انتهت الحياة في الاتحاد السوفييتي إلى شلل عام ورائه ركام هائل من عمليات القمع والإرهاب والتصفية الجسدية والروحية، اتخذت أبعاداً مأساوية مروعة لشعوب وقوميات بأكملها تتواضع أمامها وتتوارى خجلاً مظالم روسيا القيصرية التي ثار الشعب الروسي ضدها بقيادة لينين.

الزلازل وآثاره:

فلما بلغت حالة الغليان الإنساني ذروتها وأقصى عنفوانها تفجرت براكين الثورة واجتاحت الزلازل الاتحاد السوفييتي من أدناه إلى أقصاه، وثارت الجماهير الغاضبة ضد النظم الجائرة وخرجت تحطم رؤوسها ورموزها، وهكذا سقطت تماثيل ستالين ولينين التي كانت تعبد بالأمس فإذا هي اليوم تداس بالأقدام.

وتواصلت الهزات الزلزالية نحو أوروبا الشرقية لتفجر ثورات الشعوب ضد الحكومات الدكتاتورية وطغيان الأحزاب الشيوعية والنظم البوليسية الإرهابية.

وترددت أصداء هذا الاكتساح الهائل للأحزاب والنظم الشيوعية في أنحاء أوروبا والعالم، فأسرعت الأحزاب الشيوعية بتغيير أسمائها وجلودها وهي تتصل من ارتباطاتها السابقة وأوهامها الأيديولوجية الفارغة، بعد أن صدعت بها رؤوس الناس زمناً طويلاً.

أما في عالمنا العربي فقد حدثت أمور عجيبة:

فعلى مستوى الجماهير ظن الناس في أول الأمر أن تيار الحرية الجارف سرعان ما سيصل إليهم ليخلصهم من سلطان الحاكم الفرد والزعيم الأوحده وينشر العدل والديمقراطية، ولم يحدث.

وعلى مستوى الدول بقيت بعض الدساتير تنص على أن نظام الدولة اشتراكي ومع ذلك انهارت الضمانات والخدمات الاجتماعية وتآكل نظام دعم السلع الأساسية، وجرت خصخصة القطاع العام على أوسع نطاق وظهرت أنياب نوع من الرأسمالية الطفيلية المفترسة تنتج القليل وتهدر الثروات في تجارة الأراضي والعقارات بلا كوابح.

وعلى مستوى الأحزاب الماركسية والفكر الماركسي حدثت ظواهر تدعو إلى الكثير من التأمل والتفكير!

فقد رأينا فريقاً منهم ينتقل فجأة من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين بدون مقدمات، فبعد أن كانوا يسبحون بحمد موسكو إذا بهم اليوم يسبحون بحمد أمريكا، ويناضلون في سبيل التطبيع مع إسرائيل بعد أن كانت عقيدتهم أن أمريكا هي العدو الإمبريالي الأكبر وأن الصهيونية هي أعلى مراحل الاستعمار.

ورأينا فريقاً آخر يؤكد أن ما حدث للاتحاد السوفييتي وتوابعه إنما هو نكسة للشيوعية سوف تبرا منها عما قريب لتعود إلى سيرتها الأولى، وأن الشيوعية لم تمت بعد فهي لا تزال حية في كوبا وفي الصين.

ورأينا فريقاً آخر بين المعارضة العراقية ينشئ حزباً جديداً اسمه الحزب الشيوعي الديمقراطي ليضيف إلى مصيبة العراق الممزق المحاصر مصائب جديدة.

اختلفت الأفكار والتوجهات ولكنها اتفقت على شيء واحد هو العداء للإسلام ومحاربة عقيدة الأمة وتشويه تاريخها وفكرها ورموزها وتحريض السلطات عليها ووضع الإسلام برمته في دائرة الإرهاب والتخلف ... إن্দسرت الشيوعية في بلادنا وتمزق شمل أنصارها ولكنهم عادوا يتجمعون مرة أخرى تحت راية العلمانية واكتسبت بذلك العلمانية أنصاراً جُددًا وضعوا أنفسهم في خدمة السلطات الحاكمة المانحة المانعة .. ووجدوا لهم وظائف جاهزة في الإعلام ومنح في مجالس الشورى وغيرها من المنابر .. واستمروا يرتزقون من عدائهم للإسلام وللتوجهات الإسلامية والرموز الإسلامية .. وقد وعت السلطات الحاكمة .. (لا بدكأ من عندياتها ولكن بتخطيط وإشراف من أولياء أمورها ومن مستشاريهم المبتوثون في كل مكان) .. وعت دروس إخفاقاتها في معارك إلغاء الحجاب في المدارس مع الهجمات والضجيج الإعلامي منذ عقدين سابقين فعادت تنفذه بدون ضجيج أو إثارة إعلامية .. بادئة بضغوط على شرائح ضعيفة من المجتمع مثل الممرضات .. إستجلبت لهن مدربين أجانب بحجة تحسين الأداء في المستشفيات .. فإذا بالمدرّب الغبي يفضح نفسه بنفسه عندما يحاول إقناع الممرضات بنزع حجابهن .. ويزيد على ذلك من غبائه وجهله بثقافة المجتمع الذي جاء يدرّب فيه .. فقال للممرضات إنه مما يساعد المرضى الرجال على الشفاء إحتضان الممرضة له .. ولا تتدخل المديرّة المشرفة لتوقفه بل تشجعه على التمدادى فى إفساد الممرضات .. ثم نسمع بعد ذلك تهديد وزارة الصحة بتسريح جميع الممرضات المحجبات والمنقبات من وظائفهن .. ولست أدري تحت أي بند من بنود القانون تستند الوزارة في هذا التهديد ..؟!

إننا نشهد منذ فترة من الزمن عندنا زحفا علمانيا خفيا يتقدم ببطء ولكن بإصرار وثبات ويكسب كل يوم نقطة جديدة يضيفها إلى رصيده .. وقد سمعنا بأن الوزيرة الشابة فى جعبتها مشروع قانون للأحوال الشخصية سوف ينسف البقية الباقية من احكام الشريعة الإسلامية فى العلاقات الزوجية ... و كل هذا يدعو إلى كثير جداً من التوقف للتفكير والتأمل.